

المؤرخ الذى رأى ثورة يناير .. ولم يعيشها

القاهرة 19 يوليو 2011

عبد العال الباقورى

رعوف عباس رحل فى يونيو 2008

وقبل الرحيل بسنتين قطع بأن الانفجار قريب

منذ انفجرت أحداث ثورة 25 يناير ، ومنذ نجحت فى الإطاحة برأس النظام السابق وبعض أركان حكمه ، تسابق كثيرون فى القول أنهم تنبأوا بوقوع هذه الثورة وبشروا بقدمها . شارك فى هذا السباق كتاب وصحفيون وشعراء وروائيون وفنانون وسينمائيون وغيرهم من أهل الأدب والفن ، ولم يتردد فى خوض هذا السباق كثير من <<المتحولين>> الذين طالما كتبوا قصائد المدح والثناء والإشادة بالنظام البائد وقائده .. وأصبح هؤلاء <<المتحولون>> ظاهرة قائمة بذاتها تحتاج إلى الدراسة والبحث ، لأن هذه الظاهرة تكاد تتكرر فى حياتنا الثقافية من ثورة عرابي إلى ثورة يناير . أما الذين أسهموا بأعمالهم وكتبتهم فى إسقاط النظام الذى هوى فلم يجدوا بأنفسهم حاجة إلى التذكير بما كتبوه ، فما كتبوه زائع ومشهور .

ووسط هذا كله ، اختلف صوت مؤرخ كبير ، لم يدلى بدلوه فى هذا السباق ، لأنه رحل عن دنيانا قبل ثلاث سنوات ، ومع ذلك فإنه رأى ثورة يناير وكاد يلمسها بيديه . كان يتحدث عنها فى لقاءاتنا وحواراتنا ، ويؤكد أن القارة فى الطريق . ولم تكن أحاديثه شفوية فقط ، بل كان بعضها مسجلا فى صفحات الصحف وفى برامج تليفزيونية تنطق بشهادتها بأن المؤرخ الراحل رأى الثورة وأسهم فيها ، مع أنه رحل عن دنيانا قبل وقوعها ، إنه المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور رعوف عباس حامد ، الذى رحل عن هذه الدنيا فى 26 يونيو 2008 ، وقبل رحيله بسنتين أدلى بشهادة ((قطع)) فيها بيقين أن ثورة مصر على الأبواب وقد وردت هذه الشهادة فى حديث نشرته صحيفة ((المصري اليوم)) فى 17 يونيو 2006 وكان العنوان الرئيسي للحديث هو : ((مصر على أعتاب انفجار يفوق تسونامى)) ، وأكد فى هذا الحديث أن السيطرة على هذا الانفجار ((أمر مستحيل)) .

كانت هذه رؤية مؤرخ من طراز خاص فهو لم يستوعب تاريخ بلاده فقط ، بل إنه رصد حركته الاجتماعية واستنبط القوانين التى تحكمها . وحين يجتمع استيعاب التاريخ مع معرفة قوانين الحركة الاجتماعية ومع رؤية ثقافية صاغية فإن النتيجة الطبيعية هى رؤية حركة المستقبل : رصد حركته من ناحية ، وتوقع بل رؤية اتجاهاتها من ناحية أخرى وقد جمع رعوف عباس بين هذا كله ، وبرز هذا فى كتاباته بدء من الرسالة التى حصل بها على الماجستير وموضوعها " الحركة العمالية فى مصر " ، والتى صدرت فى كتاب لأول مرة فى 1968 . ومنذ البداية أيضا أبدى اهتماما فائقا بمنهج الكتابة عن تاريخ مصر ، ويتضح هذا بكل جلاء فى مجموعة دراساته ومثالاته فى 2009 عن << دار الكتب والوثائق القومية>> بعنوان <<كتابة تاريخ مصر ..! إلى أين؟ أزمة المنهج ورؤى نقدية>> (الكتاب رقم 76 فى سلسلة "مصر النهضة" (رؤية جديدة)

وباختصار شديد يمكن القول إن اهتمام رعوف عباس وتركيزه فى أعماله كلها على " محاولة فهم مسار الحركة التاريخية وآلية وعوامل التغيير والتطور فيها" مكنه ويسر له أن يتنبأ (بل يرى) مستقبل تطور وتغير هذه الحركة وفى أى اتجاه تصب . ولعل هذا ما أوضحته الأستاذة الدكتورة نللى حنا والدكتور ناصر إبراهيم بقولهما: إنه لما كانت دارسة " رعوف عباس " لـ " الحركة العمالية قد اقتضت منه التسلح بالأدوات المنهجية للمدرسة المادية " فقد ازداد اهتمامه بفهم البيئة

الأساسية للمجتمع والتأصيل لها . ومن هنا جاء تفكيره في المضي قدما في الاتجاه نفسه فاختار أن يدرس الأصول التاريخية لطبقة " كبار الملاك الزراعيين " ، وهى الطبقة التى ضربتها الثورة (ثورة 23 يوليو) . وتعد هذه الدراسة أكبر مما يوحي به عنوانها ، فإلى جانب طبيعة الدراسة الموضوعية لظهور طبقة كبار الملاك الزراعيين ، نجدها تقدم لنا رؤية جديدة للتطور التاريخي تستند على توضيح أهمية دور المستوى الاجتماعى فى تشكيل مسار التطور الاقتصادى والاجتماعى ، وفهم طبيعته مشاركتها الأساسية فى السلطة السياسية ، والتي تحددت على ضوء مصالحها الاقتصادية والاجتماعية" ، من "دراسات فى التاريخ والثقافة العربية " مهداة إلى د. رءوف عباس بمناسبة بلوغه سن الستين ، تحرير : عباده كحيلة . القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، 2001 .

ومؤرخ هذه رؤيته ، وهذا منهجه ، وتلك أدواته ، وليس من العسير عليه أن يرى تطور حركة بلاده ، وكأن قد تطرق إلى " تاريخ" العقود الأخيرة أى حكم الرئيسين السادات ومبارك فى مذكراته التى ذاعت كثيرا والتى صدرت فى 2004 بعنوان "مشيناها خطى" فى هذه المذكرات ركز على مظاهر الفساد فى الجامعة وفى الحياة السياسية عامة . وتلت المذكرات مجموعة من المقالات البحثية التى تناولت جوانب مختلفة من الأوضاع السياسية والاقتصادية فى مصر ، فى أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين . وفى ضوء هذا كله تمكن رءوف عباس بنظرته الاجتماعيه التاريخية الثاقبة من رؤية حدوث ثورة يناير قبل وقوعها بخمس سنوات وقبل رحيله بعامين .

والحديث الصحفى المشار إليه يتضمن رؤية متكاملة للأحداث وتطوراتها ، وإذا كان الأمر يقتضى تقديم فقرات من هذا الحديث ، إلا أن هذا لا يغنى عن بل يغرى بقراءته كاملا .

(مقدمات نهاية العصر)

ردا على سؤال : كيف ترى مصر فى اللحظة الراهنة ؟ ، قال رءوف عباس " نحن نعيش الآن أعراض نهاية عصر ، تتبدى ظواهره فى الكثير من الأزمات المستحكمة، فعندما يستنفد عصر ما كل إمكاناته ويغيب فيه الإبداع الذى يقدم حولا للمشاكل تحدث مثل هذه الأزمات ، والأمر لا يقتصر على أزمة القضاة والصحفيين وأساتذة الجامعات ، فمصر كلها فى حالة قلق شديد ليس ناتجا فقط عن أزمات فئوية ، وإنما عن أزمة مجتمع بشكل عام ، جاءت نتيجة لتراكم سياسات غير موفقة على مدار أكثر من عقدين من الزمان ، فالأزمة الاقتصادية على سبيل المثال ، والتى فشلت كل الاجتهادات فى حلها ترتبت عليها أزمات اجتماعية ، مثل البطالة ، أزمة الإسكان ، ارتفاع تكاليف المعيشة وقفز خط الفقر لأعلى مروراً بنظام تعليمي فاشل ودور إقليمي تآكل وعفا عليه الزمان فلم تعد مصر حتى مجرد لاعب ثانوى .

وفى الرد على سؤال آخر ، أكد رءوف عباس أنه لا يوجد نظام فردى أو توراتي يترك السلطة " بمزاجه " فهذا النوع من الأنظمة لا يتخلى عن السلطة طواعية ، بمعنى أن هناك آليات لتغييره إما أن يحرك الشارع والناس أو تتحرك قوى معينة وتحلها أو يحلها " ربنا " .

(رؤية متكاملة)

هنا لا يقدم " أستاذ " التاريخ الاجتماعى مجرد " نبوءة " أو يتحدث عن "توقع" بل يقدم رؤية متكاملة الأركان لواقع اجتماعى ، تشكلت فى أحشائه الأسباب التى تدفع إلى التغيير ، الذى أصبح حتميا ، مؤكدا أو شبه مؤكد أنه أت آت .

إن هذا منطق إجابته على جميع الأسئلة التى طرحت عليه فى حوار عميق أجراه الأستاذ محمود الزاهي . فى ضوء رؤيته وتحليله للواقع المصرى خلص إلى التأكيد منذ 2006 إلى أن التغيير قادم قادم ، إنه وشيك ، ويدق أبواب مصر بكل قوة ، ورجح أن يكون " ثورة شعبية " أو " انفجارا شعبيا " ودون أن نتساءل : أليس هذا ما حدث ابتداء من 25 يناير 2011 ، دعنا نقرأ رده على أحد الأسئلة :

- " كيف ترى سيناريوهات التغيير فى مصر؟

- - " هناك أشياء تولد رغما عنا ، هناك أشياء تخلق ، فأنت لم تعش ثورة 52 ، أما أنا فعشتها ولم أكن صغيرا بل كنت مستوعبا للأحداث ، ووقتها وصل النظام لنفس المأزق الذى نعيشه حاليا ، وأصبح القمع هو الأداة ولم يكن أحد يعرف أين المخرج ، وفجأة تحرك الجيش . أنت لا تستطيع أن تضمن ما سيحدث غدا وإن كان الراجح غدا هو ثورة شعبية أو انفجار شعبي لأن قوانين الحركة والسكون فى هذا البلد غريبة جدا ، فدائما يقال إن الشعب سلبى وأن الناس لا تتحرك ، وأنها استمرأت ما يحدث ولكن كلما زادت السلبية كان هذا نذيرا بانفجار غير محسوب العواقب أو محدد الاتجاه ، ولذلك لا بد أن تكون هناك أطروحات للخروج من الأزمة >>

إننا أمام " حوار تاريخي " من حيث أهميته ومن حيث واقعيته ووقوعه ، إننا أمام رؤية يطرحها مؤرخ من طراز خاص ، يرى ويقطع – قبل سنوات من وقوع الحدث – بأنه يدق الأبواب ، إنه يسمع الطرق ويراه مجسما أمامه ، ويصفه قائلا: " الانفجار سيكون له تأثير إعصار "تسونامى" أو تأثير بركان ، ودائما الكوارث الطبيعية يكون التحكم فيها صعبا بل مستحيلا أحيانا " .

ويتواصل الحوار : هل نحن على أعتاب هذا الإعصار ؟ يسأل الصحفى ، ويجيب المؤرخ : " نعم فأنا أكاد أشاهده وأشعر به ، وأى دارس تاريخ لابد أن يشعر به "

يجب أن يستوقفنا قوله : "لابد" اى قضى الأمر ، ولا مفر من وقوع الثورة أو الانفجار، هنا، نحن لسنا امام دارس ومستوعب لقوانين الحركة الاجتماعية فقط ، بل امام مؤرخ يصدق عليه أنه "ابن الشعب" الذى يعيش واقعة ويرى ويسجل اتجاه حركته ، وكان رحمة الله كبير الثقة والإيمان والحب لهذا الشعب الذى افتقده وافتقدناه نحن أصدقائه وتلاميذه فى لحظة كنا أحوج ما نكون إليه فيها. ومنذ رحيله طالما تساءلنا كلما مر بنا حدث من الأحداث ماذا كان سيقول ؟ ماذا لو كان بيننا ؟ . ونحاول أن نجيب ، وتعذر الجواب . وقد انفجر بركان الأسئلة منذ 25 يناير إلى اليوم ، منذ بدء الثورة التى رآها ولكن لم يعيشها . يكفيه أنه بشر بها ، بل وسعى إليها وعمل من أجلها سواء من خلال حركة كفاية أو جماعة 9 مارس .. وزاد على هذا بأن شرح كيف يتم ضمان النجاح لهذه الثورة . وهذه قصة أخرى .

<http://www.misrelmahrosa.gov.eg/NewsD.aspx?id=4027>